المحاضرة الأولى :

لمحة تاريخية حول علاقة النفس بالجسد ونشأة مفهوم السيكوسوماتيك "Psychsomatic"

شغلت طبيعة العلاقة بين العقل **Mind** والبدن **Body** وتأثير كل منهما على الآخر اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس والأطباء على مر العصور، فرغم حداثة علم السيكوسوماتيك إلا أن فكرته تعود إلى عهد الطب الفلسفي ، ويذكر أن هيبوقراط كان يعطي أهمية كبيرة لحياة المريض(صراعاته، طريقة نومه وأحلامه) كما أنه استطاع شفاء برديكاس ملك مقدونيا من مرضه الجسدي وذلك عبر تحليل أحلامه . ويعكس ذلك دون شك إدراك هيبوقراط للعلاقة بين النفس والجسم إلا أن مشكلة تلك العلاقة أنها لم تكن بهذه البساطة حيث اختلف الفلاسفة في الاعتراف بها أو الفصل بينهما. وعلى هذا المنوال سار كل من أرسطو وأفلاطون فقد ذهب **أرسطو (384 - 322 ق م)** إلى القول أن الانفعالات مثل الغضب والخوف والفرح وغيرها لا يمكن أن تصدر فقط عن النفس وحدها ، ولكنها تصدر عن تكامل كل من النفس والجسد ، لذلك يؤكد بأنه في نفس الوقت الذي يحدث فيه انفعال ما يحدث تغير في الجسم (أبو النيل،1994:12) . وفي القرن الثاني الميلادي طرح **جالينوس** نظريته التي تربط بين الجانب الحيوي وجسم الإنسان وبين بعض الظواهر النفسية وأشار إلى أن الإفراط في التغيير في أحدهما يؤدي إلى زيادة التغير في الآخر (نظرية الروح الحيواني).

من جهتهم أعطى العلماء المسلمين أهمية كبيرة للعلاقة بين النفس والجسد وللأثر الذي تتركه الأولى على الثانية ، حيث أشار الكثير منهم إلى تلك العلاقة مستندين في ذلك إلى الدين الإسلامي الذي استلهموا منه أفكارهم ونظرياته ، فقد فطن العرب والمسلمون لأهمية أثر النفس في إحداث تغييرات جسمية مرضية ولعل أشهر من قال بذلك **أبو علي بن سينا (980-1037م)** الذي يعد بعد أفلاطون أول من نقل وحدة النفس والجسم إلى التجريب من خلال تجربة الحمل والذئب (النابلسي ، 1991 :86).

عرف القرن السابع عشر نقلة نوعية في الأفكار العلمية ، فالفيلسوف والمفكر الإنجليزي **فرنسيس باكون F Bacon (1561-1626)** الذي كرس جل اهتمامه في مجال الطب ليقدم رؤية جديدة لأفكار هيبوقراط مبنية على الملاحظة والتجريب العقلاني ، وإسهام **وليام هارفي W Harvey (1578-1657)** في تطوير البحث الطبي عبر مفهومي الجهاز الوظيفي والنظام الفزيولوجي ، إضافة إلى محاولة **سيدنهام Th Sydenham (1624-1689)** تطوير تصنيف لمختلف الأمراض الحادة والمزمنة (المرتبطة بالحمى ، الناتجة عن عوامل خارجة عن الجسم والمؤدية إلى اختلالات دماغية) مركزا على الوحدة الوظيفية للجسم البشري (**kamieniecki، 1994 :18-19**).

وعلى العكس يرى الفيلسوف الفرنسي **هنري ديكارت** Descartes (1650-1596) أن النفس والجسم متمايزان فالنفس روح مفكرة والجسم امتداد ، إلا أن الإحساس بالألم والجوع والعطش وسائر الانفعالات الأخرى ناشئ من تفاعلها مع الجسم ، كما يذكر الطبيب الفرنسي **فيليب بينيل** Philippe Pinel (1826-1745) في كتابه "**وصف الأمراض**" عام (1798) أن طفح الجلد كان ينتج عن حالات الانفعال والحزن الشديد ويشير الكاتب إلى ما ذكره **مورغاني** Morgani (1771-1682) بأن الإسهال والإمساك ينتجان عن حالات التوتر والارتباك ... وفي عام (1976) أشار الطبيب الانجليزي **مودزلي** Maudsley في كتابه عن فيزيولوجية النفس إلى أنه إذا لم يتحرر الفرد من الانفعال فإن ذلك سيؤثر على الأعضاء الجسمية ويؤدي إلى اضطراب وظيفتها

ويذكر **مارتي** إلى أن الاستخدام الأول لكلمة البسيكوسوماتيك يرجع إلى الطبيب العقلي الألماني **هينروث** Heinroth (1818) في وصفه لحالة أرق ، وقد تطلب الأمر أكثر من مائة عام لإعطاء دلالة طبية جديدة للكلمة

فمن خلال أعماله على الوظيفية الغليكوجينية للكبد اكتشف كلود برنارد عام 1850 في نفس الوقت مفهوم ثبات الوسط الداخلي وقدرة الكائن الحي في الحفاظ عليه وإعادة ضبطه في حالات الاختلال وأن المرض عبارة عن انحراف خاصية فزيولوجية طبيعية ، وهي الفكرة التي رافقت بعد ذلك كل مسار البحث في البسيكوسوماتيك (Marty, 1990 :6).

مع بدايات القرن العشرين ظهر تياران فكريان أساسيان أسهما في تطور البحث في السيكوسوماتيك أولهما التيار النفسوفزيولوجي الذي بدأ بأبحاث **كانون** حول الانفعال فيما تمثل الثاني بالمدرسة السلوكية وخاصة أبحاث (**بافلوف**، 1902، **واطسون**،1913) أو ما يعرف بعلم النفس السلوكي (Dousse , 2001 : 104).

من جهته ورغم أن كل أعمال **سيجموند فرويد** لا تظهر أي تحديد مباشر للمرض السيكوسوماتي إلا أن عددا من الدراسات والأطر المفاهيمية التي وضعت من قبله كانت بمثابة أساس اعتمده التحليليون اللاحقون في تفسير المرض النفس جسدي ، فقد أسهمت أبحاث فرويد في تطوير الاهتمام بلغة الجسد وتعبيراته والتي اشتقت منها العديد من المفاهيم الحالية في مجال السيكوسوماتيك (هستيريا تحويلية ، العصاب الحالي توهم المرض ..). ووفق **روبرت دنتزر**(1989) Dantzer فإن الطبيب الألماني والتحليلي **غروديك** Groddeck يعتبر المؤسس الحقيقي للطب النفسي الجسدي الذي يعتبر أن كل ظاهرة إنسانية تتجسد من خلال وضعين جسمي ونفسي وأن المرض العضوي يحمل معنى ينبغي على المعالج أن يأخذه بعين الاعتبار عند العلاج.

كما دخل مفهوم السيكوسوماتيك إلى الدراسات الطبية الانجليزية عام 1930 عبر **فلاندرزدنبر** F. Dunbar التي وضعت كتابا حول الانفعالات والتعبيرات الجسدية إلى جانب **فرانز ألكسندر** F.Alexander الذي أكد على أهمية أن يعامل الفرد كوحدة كمية لا تتجزأ وليس خليطاً من كيانات منفصلة (الزراد،2000: 12).